إن سرد كل هذه الأسماء قد يبدو مفرطاً ولكن تغييبهم يعد تجاهل لأعمال الرواد، فجيرو دو بارينجي قام بنشر عدة كتب سبقت بخمسة سنوات كتاب مصر، والنوبة وفلسطين وسورية وآسيا الصغرى الذي أعدهم مكسيم دي كان وأعمال بارينجي هذه هى الآثار العربية بمصر وسورية وآسيا الصغرى والتى قام بنشرها عام 1852 لوى ديزيريه بلانكار إفرار.
اعتاد العديد من المصورين الذهاب إلى سوريا وفلسطين مثل أرميست بينيكية فى عام 1852 وجيمس جراهام وأوجوست سالزمان عام 1854 والمصور المرموق ألبرت أوجوستس إيزاكس عام 1856 وجون أنتوني عام 1857 وولهم هامارشميدا عام 1859. وفى عام 1857 جمعت حملة دوق ليبان العديد من المصورين مثل جاردان وفينيي الذين التقطوا صوراً عديدة للبحر الميت ونهر الأردن ولكن جورج سكينية كيت كان أول من صور البتراء على الألواح النحاسية وذلك قبل عشرين عاماً وتحديداً عام 1844.
ويجب أن نلاحظ إن هذه الحملة سارت على مسار الجولة الكبرى.
كما قام جبريال ريمين وهو روسي الجنسية مقيم بلوزان بإصطحاب الدوق الأكبر كونستنتان بن نيقولا الأول قيصر روسيا فى رحلة إستمرت من أكتوبر 1858 حتى يوليو 1859. بدأت الرحلة من نيس بفرنسا مروراً بجينوة ونابولي وباليرمو ومالطا والقسطنطينية وانتهت بالقدس. التقط رينين صوراً غاية فى الروعة وظهرت بعضها فى جريدة جازيت دي نور والتي كان يقوم بتمويلها وأغلب هذه الصور كانت من بومبيي حيث كانت عمليات التنقيب تثير فضول العالم أجمع. أما فيليكس بونفيس يستحق كثير الذكر و وفير الإيضاح لأن الانتشار الواسع للصور كان على يديه وهو بروتستنتي من سيفان بوسط فرنسا وولد بسان إيبوليت دي فور وكان عمره سبعة وعشرون عاماً عندما شارك فى عام 1860 فى الحملة التي شنها نابوليون الثالث ضد الدروز لحماية المارونيين فى لبنان، جاء بصحبة زوجته ليدي كاباني وأبنه أدريان واستقروا جميعاً ببيروت منذ عام 1867 وفتح استديو للتصوير بحى باب الدريس أصبح لاحقاً الأهم فى بلاد المشرق وفى عام 1871 أرسل رسالة إلى الجمعية الفرنسية للتصوير لعلمهم إنه يحتفظ ب"591 نيجاتيف تحتوي على صور لمصر وفلسطين وسورية واليونان بالإضافة الى تسعة آلاف صورة مركبة".
وأوضح فى كتيب مصور له أن هذه النسخ الموجودة بثلاثة أحجام مختلفة على الأقل ويعد هذا بمثابة دليل على أنه استخدم آلات تصوير عديدة حتى فى مغامراته الخطرة فى بعلبك. وشعر فيليكس بالحنين إلى الوطن فقرر العودة إلى فرنسا واستقر بألس بينما ظل أبنه وزوجته ببيروت وتولوا إدارة الاستديو لأربعين عام بمساعدة كل من رومبو وصابونجي وحكيم .
وبعد وفاة ليدي عام 1918 قام الأرمني جيراجوسيان بشراء الاستوديو بمحتوياته وأخذ يحقق مكاسب منه حتى بداية الحرب العالمية الثانية.
أقام بوفيس علاقات متميزة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية رغم كونه بروتستنتي وخاصة بمطرانيات فرنسا وأساقفتها والذى عقد معهم مشروعات مهمة. ولكنة قبل أى شيء بدأ عملة بهدف تسجيل الآثار الموجودة بكل الأماكن التى ورد ذكرها فى العهد القديم والجديد والأناجيل وكان دافعه الأول ولعة واهتمامه بالتاريخ. كان أدريان نجل بون فيس متديناً بدرجة عالية كما تبين كتاباته فقد كتب تعليقات تحت الصور التي التقطها والده.
وكتب أدريان فى أحد مقدمات كتيبات الصور "هؤلاء الفلاحون الدروز بجبل الكرمل يشبهون الحواريين الأثنى عشر فى العشاء الأخير" وأضاف "تستطيع القول أنه لم يتغير شيء تحت هذه السماء التى رأت أول شعاع فى شروق شمس العدالة". يعد عمل بون فيس مهم جداً لأنه كان يسجل بشكل منتظم لفترة عشر سنوات حالة الأماكن التى استمر فيها من بعده كل من زوجته وابنته.
هل من الضروري التذكير على إننا كنا نجهل المنطقة كلياً أو شبه كلياً؟ النقوش القديمة كانت تضر أكثر مما تنفع.
افتتاح قناة السويس جعل الرحلة أكثر راحة من ذى قبل لدرجة أن توماس كوك اقترح منذ عام 1869 رحلات منتظمة للسائحين الأثرياء فى وادى النيل ثم فلسطين وسورية. وكما كان مكتوب على لافتة استوديو بون فيس ببيروت يمكن شراء "صور طريفة للشرق" واليوم فنحن لا نذكر كثيراً عمل هؤلاء الرواد والصعوبات التى واجهوها والمخاطر التى جابهتهم. فكروت البريد و الصحافة و السينما و التلفاز و الصور الملونة، أصبحت متاحة أمام أعين كل الناس الذين لم يبدوا أبداً شعوراً إيجابياً تجاهها.
من أجل هذا نقيم اليوم هذا المعرض ونوزع هذا الكتيب المصور لنلقى الضوء على حقبة هذا الاكتشاف ونؤكد على وحدة المتوسط التى رآها أولئك المصورون الأوائل.